

و الوقتُ أنفسُ ما عُنيَتْ بحفظه

إنَّ من طبيعة الإنسان أن يزهّدَ فيما في حوزته وتحت قدرته، ويستطرفَ البعيد ويعظم الغريب، حتى إذا نزع ما كان بالأمس قريباً و غدا ما كان قبلُ موجوداً ذهب نفسه حسرات عليه. ومن الواقع المشاهد أن تجد المرء- وهو في نفس من وقته وسعة- لاهياً عابثاً يمشي سبهلاً، لا يأسف على ما يفوت من وقته، ولا يغتنم اللحظة الراهنة، بل ربما لا يفكر في قادمات أيامه. وكأن في جعبته من الزمن ما هو كفيّل باستدراك ما فات، ولكن هيهات فإن الوقت لا ينتظر والشمس لا تجس و الساعة في دوران دائم ومستمر إلى قيام الساعة. و مما يؤسف له أشد الأسف أن كثرةً كثرةً من الناس لا تعي قيمة الوقت و نفاسته إلا بعد مضيّه والحاجة إليه ماسة. ورد في حديث صحيح

«: نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس الصحة و الفراغ».

لذا فإن المريض هو الذي يعرف قيمة الصحة و يقدرها قدرها، فتراه يغبط الأصحاء و يزري عليهم إهمالهم لها. و أما الذي تواترت عليه الأعمال و الأشغال فلسان حاله يقول : لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لما تركتُ لحظة إلا اغتنمتها و لو أن البكاء يجدي لبكيت دماً لا دمعاً، و لو أن ... وليت..... و هل ينفع شيئاً ليث.

و لعل القارئ الكريم يشاطرنى الرأي في أن هدر الوقت في عالمنا العربي والإسلامي من أهم أسباب تخلفنا و تقهقرنا. إذ الوقت هو رأس المال الذي يملكه كل فرد فينا: الفقير و الغني، الرجل و المرأة، الطالب و الأستاذ، الرئيس و المرؤوس. الخ على أن نسبة اشتراكنا في هذه النعمة الجلّي تختلف من إنسان لآخر. و المجدود فينا من يغتنم القسط الأوفى منها. و نكاد نتفق جميعاً على أن الاستفادة من الوقت و ترشيده من العلامات المميزة بين الشعوب المتقدمة و المتخلفة، و بين من سمت همته إلى العلياء و من جمّد طاقاته و مواهبه. فالصنف الأول ما كان ليتبوّء تلك المكانة لولا استغلاله الوقت و استثماره فيما ضمن له حياةً كريمةً و عيشاً رغيداً. أما الصنف الثاني- و إليه ننتمي- فكان من خبر أهله أنهم استوطؤوا العجز و قنعوا باليسير من وقتهم، جاعلين نصب أعينهم جواب بعضهم حين سئل لم لا تطيل الهجاء؟ فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومردّدين قول الشاعر:

واقعدُ فإنك أنت الطّاعمُ الكاسي

دع المكارم لا ترحل لبغيها

فإلى أين أيها الأخ الكريم تحب أن تنتمي؟

ويقنعُ بالدونِ مَنْ كان دوناً

إذا ما على المرءِ رامَ العُلا

وأعلم أنك إذا أردت أن تبني لنفسك حياً وميتاً مجدداً تليداً ولسان صدقٍ في الآخرين فما عليك بدايةً إلا أن تستشعر قيمة الوقت وتدرك عظيم خطره، وأنت لست - في الحقيقة - إلا ليالي وأياماً متى ذهب بعضها ذهب بعضك، وأن ما ضاع منك جديرٌ أن تطول حسرتك عليه وأسفك له كحال مَنْ سرق منه اللصوصُ جميع ما يملكه من مالٍ ومتاع وتركوه نهباً للضياع. وهذا من شأنه أن يورثك يقيناً بأهمية الوقت فيجعلك ضنيناً به، حريصاً على أن تصرفه في وجوهه، وتستثمره في مجالات شتى إما في كتاب تقرأه، أو عملٍ نافع تقوم به، أو رياضة مفيدة أو نصيحة تسديها، أو اهتمام بأولادك ثقافياً وجسدياً وروحياً.. الخ عوضاً عن إنفاق الساعات مثلاً أمام التلفاز الملهاة الأكبر في حياتنا. ((كما أن برمجة الوقت تساعدنا على تنظيم الاستفادة من أوقات الفراغ في دعم أبعاد ذاتنا كلها عوضاً عن الشعور بالفراغ والتفاهة، وعوضاً عن إهمال تنمية جوانب مهمة في شخصيتنا بسبب سوء للتنظيم وسوء التوزيع لطاقتنا وأوقاتنا)).⁽¹⁾

ومن العوامل التي لها كبير الأثر في إيقاظ الوعي بأهمية الوقت ونفاسته قراءة أخبار الرجال وتراجم العلماء السابقين والاطلاع على ما كانوا عليه من حرص شديد على أوقاتهم، يقول الحسن البصري (ت ١١٠ هـ): أدركتُ أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم.

وإن القارئ لتأخذه الدهشة ويستولي عليه العجب والإعجاب من أحوال هؤلاء الرجال في ملئهم أوقاتهم بتحصيل العلوم واقتناص الفوائد، فما كان يؤنسهم في وحشتهم إلا الكتب والدفاتر ولا يصحبهم إلا الأقلام والمحابر، شتموا عن ساق الجد ما أطاقوا إلى أن أصبحوا غزاة الدهر والزمان ليس لهم في مجدهم نظير، وإن آثارهم في كل فرعٍ من فروع المعارف لشاهد صدقٍ على ذلك. أقول: ونحن أيضاً قد أوتينا مثل ما أوتي أسلافنا بل ربما أكثر، ولكن على النقيض مما ذكرت، أعني عجزاً وتحاذلاً وسوء ذكر وفتور همة.

وأدع الكلام الآن لكتب التاريخ والتراجم لتخبرنا عن واقع أجدادنا و كيف كانوا يديرون أوقاتهم ويستفيدون منها مما أورثهم من جميل الذكر وطيب النشر ما ستقف على بعض منه.

الشيخ الرئيس، الحسين بن عبد الله ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) أصله من بلخ وولد في إحدى قرى بخارى كان باقعةً وصاحب ذكاءٍ خارق، وجاء ترجمته أنه لما بلغ عشر سنين كان قد أتقن علم القرآن والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة والجبر المقابلة ، واعتنى بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي وغير ذلك، ونظر في النصوص والشروح وفتح الله عليه أبواب العلوم ثم توجه إلى علم الطب وقرأ الكتب المصنفة فيه وعالج تأدباً لا تكسباً، ولم يبلغ ست عشرة سنة حتى فاق فيه الأوائل والأواخر وأصبح مرجع أهل زمانه ، وخلال فترة تعلمه لم ينم ليلةً واحدةً بأكملها، ولا إشتغل في النهار بسوى المطالعة ، وكان إذا أشكلت عليه مسألةً توضأ وقصد المسجد الجامع وصلى ودعا الله تعالى أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له، ولم يستكمل ثماني عشرة سنة إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها. (٢)

الجاحظ عمرو بن بجر (١٦٣ - ٢٥٥ هـ) يقول عنه ياقوت الحموي: كان من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره وعلا قدره واستغنى عن الوصف (٣) ويقول أبو هقان: لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع في يده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى إنه كان يكتري ذكائين الوراقين ويبيت فيها للنظر. (٤)

وقيل لأبي العيناء: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن. (٥) رحم الله الجاحظ ما مقلت العيون مثله.

ومن الذين تبوءوا الذروة في حفاظهم على الزمن الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي (٤٣١-٥١٣ هـ) كان بجرّاً من العلم مفرد الذكاء يقول عن نفسه: إني لا يحل لي أن أضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة و بصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصني على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة و، أنا أقصّر بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار الكعك وتحسيه بالماء مع الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه، وإنّ أجلّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص، فالتكاليف كثيرة والأوقات خاطفة. (٦)

وكان من ثمرات استثماره لوقته أن صنف كتاباً لم يصنف في الدنيا أكبر منه وهو كتاب الفنون الذي بلغ مئات المجلدات، مع العلم أنه واحد من عدّة كتب صنّفها. (٧)

ومن العلماء الذين خلّدهم العلم الإمام الجليل يحيى بن شرف الدين النَّووي (٦٣١ - ٦٧٦هـ) كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً مع الضبط والتعليق. قال عنه تلميذه أبو الحسن بن العطار: كان لا يضيع له وقتاً لا في ليل ولا في نهار إلا في الاشتغال بالعلم حتى في الطريق يكرّر أو يطالع ودام على هذا ستّ سنين ، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق. وكان لا يأكل في اليوم والليله إلا أكلةً بعد عشاء الآخرة ، ويشرب شربةً واحدة عند السحر ويمتنع عن أكل الفواكه والخيار ويقول: أحاف أن يربط جسمي ويجلب لي النوم ولم يتزوج. ^(٨)

وإن كتب التراجم تضم العشرات بل المئات من أمثال هؤلاء العلماء الذين لولا اغتنامهم لأوقاتهم بطريقة مدهشة حقاً لما امتلأت مكتبات العالم و غيرها بتناجهم الفذّ الفريد المعجب.

وقد يعترض البعض قائلين: لكنّ هؤلاء العلماء قد مُنحوا من صفاء الذهن وجودة القريحة والذكاء الوقاد ما لا تكاد تجد له نظيراً في زماننا، زد على ذلك صوارف الدنيا ومشاغلها ومشاكلها التي ننوء بها، وما أفرزته الحضارة من علوم ومخترعات لم تكن في السابقين علينا أن نلّم بها، فأنتي لنا أن نكون أمثالهم. الجواب أنه لا غبار على هذا الاعتراض، لكن الأمر الذي أركّز عليه هو الاهتمام بالوقت قدر المستطاع وأن نزرع في نفوسنا بذرة الحرص عليه ثم نتعهدا بالرعاية والعناية إلى أن تثمر وتأتي أكلها، ولا شك أن لدى كل واحد فينا - مهما كان مشغولاً - وقتاً مهماً لا هو وقت عمل ولا وقت راحة فلم لا نحياه بفائدة ما عوضاً عن أن يذهب هدرًا دون أن يكون لنا فيه بصمةٌ أو أثر حسن. دعونا نفرض أن لدى المرء كل يوم ساعة واحدة فقط من الوقت المهمل ولا شك لدينا أكثر من ذلك فهذا يعني في الشهر ٣٠ ساعة وفي السنة ٣٦٠ ساعة أي أسبوعان كاملان، ترى كم كتاباً يُقرأ أو عملاً ينجز في هذه المدة؟ سوف نرى النتيجة معاً من خلال أناسٍ عرفتهم عزّ عليهم أن يمضي هذا الوقت المهمل دون فائدة فم يتركوه إلا وقد خرجوا بفوائد جلييلة وإنجازات مشرفة.

١- حدثني بعد أساتذتي أنه في صغره عمل مع والده في الكِلاسة وكان لديه كل يوم وقت مهمل يقرب من ساعة أو أكثر، قال: فكنت آخذ معي ألفية ابن مالك في النحو الصرف وأحفظ ٥- ٦ أبيات وهكذا كان ديدني كل يوم حتى حفظتها كلها.

٢- أحدهم كان طالباً في الدراسات العليا في الأدب الإنكليزي وكان قليلاً ما يحضر بسبب ظروف عمله الذي يقتضي أن ينفق جل وقته راكباً سيارته، فما كان منه إلا أن سجل بصوته أهم الأبحاث المطلوبة وصار يستمع إلى الأشرطة أثناء القيادة وقد حاز في نهاية السنة الدرجة الأولى وفاق جميع زملائه المتفرغين.

٣- وآخر حفظ خلال سنتين ٩٠٠٠ كلمة إنكليزية عندما كان يركب وسيلة النقل متجهاً إلى مدرسته وعائداً منها إلى منزله وهكذا كل يوم غدواً ورواحاً حتى تخرج ولديه ذلك الرصيد الكبير من الكلمات.

٤- وأحدثك عن ربة منزل حفظت القرآن الكريم كله عن ظهر قلب عن طريق الأشرطة المسجلة أثناء قيامها بالأعمال المنزلية.

أرأيت أيها الأخ القارئ ما يمكن أن يسفر عنه اغتنام ساعة أو نصف كل يوم، قد لا يعبا الناس بنصف ساعة على حدة ولكنها بعد شهر ١٥ ساعة وبعد سنة ١٨٠ ساعة فهي ساعات، وكما يقال: الوقت جمع و ليس بنبع:

من نُحِب العلم التي تُلتقط

وإنما السَّيْلُ اجتماعُ النقط^(٩)

اليوم شيءٌ وغداً مثله

يحصل المرءُ بها حكمةً

وختاماً أقول : إن كل واحد فينا قادر أن يكون مبرزاً ومتميزاً من خلال كسب الوقت واغتنامه، وما الفرق الجوهرى بيننا وبين الغربيين إلا عامل الوقت فهم شعب مثقف يقرؤون بشغف ونهم في كل مكان (وسائل النقل المختلفة والحدائق المنتزهات ... إلخ) ولذ فعدد نسخ الكتاب في طبعة الأولى تبلغ الآلاف و مئات الألوف وسرعان ما تنفذ ورأيت مرة معجماً باللغة الإنكليزية طبع في أكسفورد كتب عليه: بيعت منه ٣٠ مليون نسخة، أما في بلادنا التي كانت يوماً ما منارات للعلم والحضارة فقصارى ما يطبع فيها ٣٠٠٠ آلاف نسخة ويبقى الكتاب حبيس المكتبات سنوات متطاولة حتى ينفذ ، فإذا أردنا أن نلحق بالغربيين بل أن نلحق قبلهم بأجدادنا وأسلافنا فعلينا أن نمد جسور الصلة بيننا وبينهم بأن نحترم الوقت ونقدره قدره ونعمل فيه كما يعمل فينا أيضاً.

الحواشي

• صدر بيت ليحيى بن هبيرة، و عجزه: و أراه أسهل ما عليك يضيع.

(١) عصرنا والعيش في زمانه الصعب ص ١٠٤ للدكتور عبد الكريم بكار، دار القلم - دمشق ٢٠٠٠م.

(٢) الوفيات ١٥٧/٢ تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت ١٩٩٤م، الوافي بالوفيات ٣٩١/١٢ ،

فرانس شتاينر-ألمانيا.

(٣) معجم الأدباء ٢١٠٢/٥ تحقيق إحسان عباس، دار الغرب- بيروت ١٩٩٣م.

(٤) المرجع السابق، الصحيفة نفسها.

(٥) جمع الجواهر ص ٢٠٤ للحصري القيرواني، تحقيق البجاوي، دار الجيل- بيروت ١٩٧٨م.

(٦) قيمة الزمن عند علماء المسلمين، للعلامة الأستاذ الجليل عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، ص ٥٣-

٥٤ نقلاً عن ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي.

(٧) المرجع السابق، الصحيفة نفسها.

(٨) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٩) البيتان لابن النحاس الحلبي، بغية الوعاة ١٤/١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية-بيروت.